العوائق الذاتية للنهضة الحضارية في فكر مالك بن نبي

أ / يوسف سرطوط – جامعة الجلفة

مقدمة :

إن المتتبع لدعوات الإصلاح في العالم الإسلامي يرى أن كل مصلح منهم رأى الخلل من زاوية رئيسية واحدة كبرى، أما باقي الزوايا فهي فرعية هامشية، ويركّز كل جهوده لإصلاح هذا الخلل الأساسي ويرجع إليه كل خلل آخر يراه ماثلاً أمامه، فمحمد عبد الوهاب (توفي سنة 1791م) يرى أن الخلل في البعد عن التوحيد الخالص . ومدحت باشا (توفي سنة 1884م) يرمي إلى إصلاح الحكومة والإدارة ، على الطريقة الأوروبية حتى لقّب بـــ "أبي الدستور" و"أبي الأحرار"؛ حيث سعى إلى ظهور البرلمان العثماني عام 1876م .

وعبد الرحمن الكواكبي (توفي سنة 1902م) الذي كان يرى أن الخلل في الاستبداد السياسي وفساد الولاة ، وبإصلاحهما يصلح حال الأمة. و جمال الدين الأفغاني (توفي سنة 1897م) كان يرمي إلى إصلاح العقول والنفوس أولاً ، ثم إصلاح الحكومة ثانيًا ، وربط ذلك بالد ين. وتابع محمد عبده (توفي سنة 1905م) نهج أستاذه الأفغاني، إلا أنه ركّز على إصلاح نُظُم التربية والتعليم في الأزهر الشريف، فثار في وجه التقليد، ودعا إلى الاجتهاد وتحرير الفكر. وواصل نهجه تلميذه محمد رشيد رضا (توفي سنة 1935م) فأصدر مجلة المنار، التي كانت جامعة لأفكاره وآراء شيخه. أما عبد الحميد بن باديس (توفي سنة 1940م) فكان حريصًا على التربية والتعليم بشكل أساسي لأنه يرى أن إعداد الفرد الصالح هو الأساس في الإصلاح، فأنشأ العديد من المدارس القرآنية في كل ولاية بل زاول التعليم بنفسه من خلال مجالس التذكير.

أما مفكّرنا وفيلسوفنا مالك بن نبي فكان يرى أن المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ما هي إلا أعراض عن الأمراض الحقيقية، وأطلق عليها اسم (مشكلات الحضارة)، فالمشكلات الحضارية هي الأسباب الحقيقية فيما يعانيه المسلمون، وهي التي أفرزت كل ما نراه من معضلات في شتى الميادين والمجالات، ومن هنا انطلق ابن نبي في تشخيص واقع الأمة الإسلامية عمومًا، والمجتمع الجزائري خصوصًا، يبحث عن جذور الداء، مغضيًا عن الأعراض البراقة المزيفة والتي في كثير من الأحيان خدعت رجال الإصلاح. ويمكن أن نقسّم العوائق الحقيقية التي أدت إلى التخلف الحضاري للمسلمين بشكل عام : إلى عوائق ذاتية داخلية موجودة في كيان العالم الإسلامي، وإلى عوائق خارجية فرضها الاستعمار الأوربي على العالم الإسلامي، ونظرًا لضيق المقام فسوف نخصص هذه المقالة للكشف عن العوائق الذاتية الداخلية، والتي سنتاول أشهرها وأكبرها فيما يلي.

المبحث الأول: الجانب النفسي

المطلب الأول: القابلية للاستعمار

يقول مالك بن نبي: " إن القضية عندنا منوطة أولاً بتخلّصنا مما يستغله الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته، من حيث نشعر أو لا نشعر، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا، فلا رجاء في استقلال، ولا أمل في حرية، مهما كانت الأوضاع السياسية ، وقد قال أحد المصلحين : ((أَخْرِجُوا الْمُسْتَعْمِرَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَخْرُجُ مِنْ أَرْضِكُمْ)). إن الاستعمار لا يتصرف في طاقتنا الاجتماعية إلا لأنه درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، وأدرك منها موطن الضعف، فسخرنا لما يريد، كصواريخ موجهة، يصيب بها من يشاء، فنحن لا نتصور إلى أي حد يحتال لكي يجعل منا أبواقاً يتحدث فيها، وأقلاماً يكتب بها، إنه يسخرنا وأقلامنا لأغراضه يسخرنا له، بعلمه، وجهلنا "[1].

مفهوم (القابلية للاستعمار) هو مجموعة الصفات النفسية السلبية في مجتمع ما، التي تُسهّل على الاستعمار مهمته الاستيلائية عليه. وبناءً على مفهوم (القابلية للاستعمار) يفرّق ابن نبي بين الغزو والاستعمار فيقول: "فيجب أن نحدث هنا تفرقة أساسية بين بلد مغزو محتل وبلد مستعمر، ففي الحالة الأولى يوجد تركيب سابق للإنسان والتراب والوقت، وهو يستتبع فرداً غير قابل للاستعمار؛ أما في الحالة الأخرى فإن جميع الظروف الاجتماعية التي تحوط الفرد تدل على قابليته للاستعمار، وفي هذه الحالة يصبح الاحتلال الأجنبي استعماراً وقدراً محتوماً. فروما لم تستعمر اليونان ولكنها غزتها، وإنجلترا التي استعمرت أربع مائة مليون من الهنود إذ كانت لديهم القابلية، لم تستعمر إيرلندة الخاضعة دون ما استسلام "[2]. وعليه فإن المشكلة الرئيسية هي أنه لكي نتخلص من الاستعمار يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار...

وتأتي أهمية مفهوم (القابلية للاستعمار) التي طرحه مالك بن نبي في كتابه (شروط النهضة) سنة 1948م، ثم زاده وضوحًا وإنضاجًا في بقية كتبه، أنه قلب الفكرة السائدة التي كانت تقول أن الاستعمار هو سبب التخلف في منطقتنا، إلى الفكرة التي تقول أن التخلف في منطقتنا هو سبب مجيء الاستعمار ومعنى هذا أنه لو كانت مجتمعاتنا قوية ومحصّنة لما وقعت تحت سيطرة الاستعمار من الأساس. وإنني ألاحظ أن القرآن الكريم هو أول من قرر هذه الحقيقة، وهي أن الداء والمرض كامن في أنفسنا لا في غيرنا، وأن الله لن يغيّر أوضاعنا المتخلفة في شتى المجالات ما لم نغيّر ما بأنفسنا من أفكار انهزامية وتصورات تشاؤمية، وعقائد ظلامية، قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[3].

المطلب الثاني: ذهان السهولة وذهان الاستحالة

يقول مالك بن نبي: " من وجهة النظر النفسانيَّة ، يجب أن تُبَيِّن تربيتُنا أنَّ خطَّ سَيْرِ نشاطنا الشخصي أو الجماعي يجب أن يَمُرَّ بين ذُهانَيْنِ (Deux Psychoses) يبدو أنهما يَنْتابانِ سائر البلدان الإسلامية، وهما: ذُهانُ (الشيء السهل) ، الذي لا يستدعي أيَّ مجهود، والذي يَسْتَمِيلُنا إلى الكسل ؛ وذُهانُ (الشيء المستحيل) الذي يجعلنا نحكم مُسَبَّقاً ومن أول وهلة بأنَّ النشاط فوق مستوى وسائلنا ، مِمَّا يفضي بنا على هذا المنوال إلى الشَّلَلِ التَّام. فمُهِمَّةُ تربيتنا الشَّعبيَّة والمدرسية، إنما تتمثل في تبْصيرِها لنا بأن : ليس هناك (شيءٌ سهل) ولا (شيء مستحيل)، وإنما لكل مشكلة واقعية حلها الذي تنحصر القضية في تطبيقه بالجهد الذي يستلزمه. لقد حان الأوان لكي نتحرَّر من جميع ضروب العطالة التي توقف الجهد، ومن سائر أعذار العطالة التي تُبَرِّرُ كَسَلَنا "[4].

ويقول أيضًا: " إن أول الابواب إلى الحضارة أن نواجه المشكلات مستبشرين لا متشائمين، فإذا ما واجهنا الأمور متشائمين فقد أصبحت في حكم استحالة ، ومن العبث أن نفكر بأننا نستطيع التغلب على المستحيل، وهذا ذهان مَرّ بنا نحن ، فقد أصبحنا نقول مسبقاً إذا ما سئلنا لماذا لا تفعلون هذا الأمر؟ إنه مستحيل. ويقابل هذا في الخطورة نفسية التساهل ، إذا ما نظرنا إلى الأشياء على أنها أمر تافه لا قيمة له. فقد نظرنا إلى اليهود ونحن في الجزائر نظرة احتقار، فلم نقدّر قوتهم بينما هي واضحة وخاصة في المجال السياسي والإقتصادي، فقد نعلم أن دول أميركا وإنجلترا وفرنسا تؤيد اليهود، ومع ذلك فقد قلنا حثالة حقيرة، حينما ننفخ عليهم نفخة واحدة يطيرون، ولكنهم للاسف لم يطيروا. فينبغي علينا أن نتخلص من نفسية المستحيل ونفسية التساهل، فليس هناك شيء سهل وليس هناك شيء مستحيل"[5].

المطلب الثالث: التعالم والحِرفـيَّة في الثقافة

يقول مالك بن نبي: " والحقيقة أننا قبل خمسين عاما – أي في مطلع القرن العشرين – كنا نعرف مرضا واحدا يمكن علاجه، وهو الجهل والأميّة، ولكننا اليوم أصبحنا نرى مرضا جديدا مستعصيا هو (التعالم). وإن شئت فقل: الحِرفـيّة في التعلّم، والصعوبة كل الصعوبة في مداواته، وهكذا فقد أتيح لجيلنا أن يرى خلال النصف الأخير من هذا القرن ظهور نموذجين من الأفراد في مجتمعنا: حامل المرقعات ذي الثياب البالية، وحامل اللافتات العلمية ؛ فإذا كنا ندرك بسهولة كيف نداوي المريض الأول، فإن مداواتنا للمريض الثاني لا سبيل إليها؛ لأن عقل هذا المريض لم يقتن العلم ليصيّره ضميرًا فعالاً، بل ليجعله آلة للعيش، وسُلمًا يصعد به إلى منصة البرلمان، وهكذا يصبح العلم مسخةً وعُملةً زائفة، غير قابلة للصرف، وإن هذا النوع من الجهل لأدهى وأمر من الجهل المطلق ؛ لأنه جهل حجّرته الحروف الأبجدية، وجاهل هذا النوع لا يقوّم

الأشياء بمعانيها ولا يفهم الكلمات بمراميها وإنما بحسب حروفها، فهي تتساوى عنده إذا ما تساوت حروفها، وكلمة "لا" تساوي عنده "نعم" لو احتمل أن حروف الكلمتين متساوية.

وكلام هذا المتعالم ليس "كتهتهة" الصبي فيها "صبيانية" وبراءة، فهو ليس متدرجا في طريق التعلم كالصبي، وإنما "تهتهة" يتمثل فيها شيخوخة وداء عضال، فهو الصبي المزمن "[6]. فمالك بن نبي يشير لأصحاب الشهادات الفارغة من مضمونها ، فهم يسمَّون مثقفين ومتعلّمين ولكنهم أبعد الناس عن الوعي الحضاري، وأصعب الناس مرضًا فلا يمكن شفاؤهم؛ لأنهم يدّعون العلم فهم (متعالمون)، وتعالمهم يدعوهم إلى الأنفة والتعالي وعدم الإقرار بأنهم أشباه جهال.

المبحث الثاني: الجانب الفكري

المطلب الأول: غياب المنهج[7]

إن بلداً مثل اليابان بدأ نهضته في منتصف القرن التاسع عشر، وهي نفس الفترة التي بدأ الحديث فيها عن النهضة في العالم الإسلامي، فلماذا كان هذا البطء في (الإقلاع) ؟. السبب برأى مالك بن نبي هو عدم وجود منهج واضح للإصلاح ولا نظرية محددة للأهداف والوسائل وتخطيط للمراحل. (فإذا حللت جهود المصلح الإسلامي وجدنا فيها حسن النية، ولكنا لانجد فيها رائحة منهج)[8] (وليس هناك تحليل منهجي للمرض وليس إلا أن عرف المريض مرضه فاشتد في الجري نحو الصيدلي –أي صيدلي– يأخذ من آلاف الزجاجات ليواجه آلاف الآلام)[9] (وواقعنا الآن إما فكرة لا تتحقق أو عمل لا يتصل بجهد فكري)[10].

لا شك أن هذا الكلام حول (المنهج) صحيح ودقيق، فليس هناك دراسات عميقة وتحليلية لأمراض المسلمين، وما هي الحلول والمقترحات وما هو المهم والأهم، وكل الدراسات تأخذ جانباً من الجوانب تركز عليه والحل الأحادي هو الغالب، وأعمال كثير من المؤلفين كانت تبريراً ودفاعاً أمام الهجوم الغربي الاستشراقي على الإسلام ، وليست أعمالاً فيها تخطيط للحاضر والمستقبل، غابت المؤتمرات التي تخرج بنتائج فعلية واقعية وكثرت تلك التي توصي بوصايا لا تخرج عن دائرة الورق التي كتبت عليه. والذين كتبوا في أوائل النهضة كتابات جيدة مثل الشيخ رشيد رضا لم يستفد منها كثيراً ولم تنقح ويؤخذ الايجابي منها، ويبنى عليه، وكذلك الذين جاءوا من بعده لم يكن هناك خطة علمية لدراسة أقوالهم وآرائهم، وكأنما كل من يأتي يريد البدء من الصفر، بل نستطيع القول: إن كثيراً من الأخطاء التي وقعت سواء في مجال الدعوة أو غيرها إنما كانت بسبب غياب المنهج أو عدم الالتزام بمنهج .

وإذا كنا لا نملك الوضوح من الناحية النظرية فضلاً عن وجود منهج تطبيقي عملي فهذا لا يعني عدم وجود المنهج، فالقرآن الكريم والسنة أوجدا المناخ المناسب لأن يستنبط العلماء منهج

أهل السنة في النظر والاستدلال وطرق الحياة التي يريدها القرآن[11]، فعندما يقول سبحانه: ﴿ولاتَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[12] نجد الصحابة يفهمون هذا التوجيه ويلتزمون به، فأمير المؤمنين عمر بن الخطاب لا يعلم معنى كلمة ﴿وَأباً﴾ من آية ﴿وفَاكِهَةً وأباً﴾[13] فلا يتكلف الجواب ولا يحاول التعالم، بل يرى أنه من التكلف معرفة كل شيء، وأبو بكر –رضي الله عنه– يقوم بعمل علمي طبقاً لمنهج، عندما أعطى تعليمات مشددة لزيد بن ثابت، الذي كلفه بجمع القرآن، وكذلك عثمان بن عفان يشكل لجنة لجمع الناس على مصحف واحد[14] .

المطلب الثاني : عدم الفعالية :

يرى ابن نبي أن الفعالية تعد إحدى خصائص العقل الغربي ، وأن العقل الغربي يخضع لمبدأ الفعاليةِ[15]هذه الخاصية اكتسبها الغربي على المستويين الفردي والاجتماعي، وصارت تصبغ كل أفعاله وإنجازاته في إطار التاريخ.. وهو –الغربي– اكتسب هذه الفعالية من التحديد الإيجابي لثقافته، الذي قام به (ديكارت) ومن أتى بعده في بداية حركة النهضة الحضارية الأوروبية. كما يرى أن الفعالية على المستوى الاجتماعي هي القدرة على توليد ديناميكا اجتماعية، من خلال وضع المعادلة الاجتماعية في الحسبان، ومعرفتها بدقة، وبالتالي الدخول في تخطيط منهجي لا يحتوي خليطًا من الأفكار المتناقضة[16].

يعزو مالك بن نبي غياب الفعالية في المجتمع الإسلامي، إلى عدم اختيار النموذج المناسب الذي يعطيه تحديدًا لمنهجه. فقد بقيت النهضة في نظره تنمو تحت تأثير نموذج غامض لم تختـــــره، بل فُـــرض عليها تلقائـــــيًا من أذواق القوم. فاختيار النموذج الغربي من قبيل وضع الثور قبل المحراث، وتكديس لمنتجات الحضارة الغربية، والذي تمَّ في تنكر كامل تقريبًا للنموذج ولفضائله الواقعية ولقيمه العامة، وانجرارٌ وتقليدٌ للجانب السافل من ه ، فالفعالية من وجهة نظر اجتماعية سوسيولوجية، تَنتج من خلال التركيب التاريخي للعناصر الأولية للحضارة، وهي الإنسان والوقت والتراب، على ضوء هداية منهج مكيف طبقًا للنموذج الذي اختاره المجتمع. فهي في جوهرها منهج فكري، ومسألة أفكار ومناهج، بدل أن تكون مسألة وسائل.

إن حديث ابن نبي عن النموذج والمنهج هو في الحقيقة دعوة إلى ترجمة مشروع ثقافي، يكتل الجهود، ويشكل دستور الحياة، من خلال ما تحويه الثقافة من عناصر الفكر والأخلاق والعمل والجمال "[17]. وممن تناول إشكالية الفاعلية من المسلمين المعاصرين تلميذ مالك بن نبي المفكر جودت سعيد في كتابه "الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً"، الذي رأى فيه أن الفاعلية عبارة عن قدرة الإنسان على استعمال وسائله الأولية ، واستخراج أقصى ما يمكن أن يستخرج منها من النتائج، أما اللافعالية فهي أن يكون الإنسان عاجزاً عن استخراج النتائج، التي يمكن أن يحصِّلها من الوسائل المتاحة له، فهذا هو اللائق "[18].

إني أشبّه العالم الإسلامي بالسيارة، ذات المحرّك الممتاز الذي يمثّل فيها الإسلام، وذات الهيكل والعجلات الممتازة وهي تمثّل الثروات النفطية والمعدنية وغيرها، لكن هذه السيارة بلا وقود، وهذا الوقود هو الفعالية، هكذا أضرب هذا المثال التقريبي ليسهل إدراك معنى الفعالية .

إن المسلم يحمل أفكاراً صحيحة ولكنه لا يستطيع تطبيقها في دنيا الواقع، كفريسة تعرضت للشلل حتى يسهل ابتلاعها، ومردّ ذلك هو انعدام الفعالية . لقد تنبأ النبي ﷺ بهذا الداء منذ أربعة عشر قرنا حينما قال : «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا»، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ»، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»[19].

المطلب الثالث: العقلية الذرية

يقصد بهذا المصطلح (الاتجاه إلى اعتبار الوقائع والأحداث مجزأة منفصلة فردية، دون أي رباط عضوي بينها، كأنما هي في مجموعها لا تكون وحدة معينة، أي حلقة من التاريخ وفصلاً من فصوله وإنما تكون في النظرية الذرية كوماً من الأحداث والوقائع جمعتها الصدفة، في غير ما تركيب ولا تنسيق، فلا يمكن أن نستخلص من كوم كهذا، كونته الصدفة المحضة أية نتيجة عملية؛ أي قانوناً عاماً نطبقه في حالات خاصة)[20] ، فهي النزعة التي تجعل تفكيرنا عاجزاً عن ضم مجموعة من الأفكار في اطراد واحد طبقاً لتسلسلها، ضماً يحول بين عقلنا وبين تتبع الفكرة في حركتها المنطقية؛ ولهذه النزعة في الميدان السياسي يرجع سبب تحطيم وحدة المشكلات العضوية وتجزئة الحلول، حتى تصبح السياسة العاطفية، وهي التعبير عن التفكير (الذري) في الواقع المحس، تصبح تلك السياسة عاجزة عن صياغة حكم صحيح على ذلك الواقع، لأن الحكم يفترض قاعدة يجب الرجوع إليها، ومقياساً تقاس به الأمور! أي يفترض تركيب مجموعة أفكار وتنسيقها، أعني أن (الحكم) يفترض عمليات ذهنية لا تتفق مع التفكير الذري)[21] ، وهذه العقلية موجودة في أوساط المسلمين بسبب بعدهم عن (الفعل الحضاري) وبسبب التكوين الاجتماعي الذي ورثناه، ومن مظاهرها (أن جهودنا في كل مجال لا تتسم بالجهد المتواصل ولكن بالمحاولات المتتابعة، فما أن يبدأ نشاط ما حتى يذهب فجأة كأنه وثبة برغوث ، أو كأنه مركب على صورة الخط المنقط الذي يمر من نقطة إلى أخرى دون أن يصور شيئاً، ولنعتبر على سبيل المثال كم منذ نهاية الحرب ظهرت مجلة في بلادنا ثم اختفت بنفس السرعة)[22].

ومن مظاهر هذه العقلية (العجز عن أن نعقد صلات بين الأفكار وعن أن نعطي لمناقشة مشكلة ما حركة متصلة مطردة لا يحجل فيها الفكر من نقطة إلى نقطة، بل يطرد دائماً من مقدمة إلى نتيجة)[23] (وإذا كان من الممكن تجزئة المشكلة لتجزئة حلولها (فكل الطرق تؤدي إلى

روما) ولكن الطريق عبر المنهج هو أطول الطرق بلا شك، إن طريق الحضارة لا يمكن خطه بإقامة مدرسة هنا ومصنع هناك وسدٍّ هنالك، أو بوضع سلة معدنية في جانب هذا الشارع حيث لا أحد يفكر في إلقاء المهملات) [24]. ولو أننا تعودنا الربط والتعميم وتتبع الجزئيات من الكليات لما استغربنا تشابه المشكلات الخارجية التي يواجهها العالم الإسلامي، فالعالم الذي نواجهه (الاستعمار) لا تأتي فيه الأشياء عفواً وإنما كنتائج لخطط محكمة، فعندما تفشل بعثة علمية في بلاد الغرب أو أحد أفراد هذه البعثة نفاجأ: كيف حصل هذا؟[25]. ولو تتبعنا بعض الظواهر المحيرة في العالم الإسلامي لوجدنا أن المحرك لها واحد، ولكن عقلية تجزئ الأشياء تجعلنا لا نشعر بالقاسم المشترك فيما بينها.

المبحث الثالث: الجانب الاجتماعي

المطلب الأول: الشلل الأخلاقي

من المسلم به الذي لا يتنازع فيه اثنان أن (الإسلام دين كامل) بيد أن هذه القضية قد أدت في ضمير ما بعد الموحدين إلى قضية أخرى هي : (ونحن مسلمون) ؛ فنت ج : (إذن نحن كاملون) !!. ولنعد إلى الماضي، لقد كان عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– يحاسب نفسه دائماً، وكان يبكي من ذنوبه رجاء أن يغفرها الله له؛ ولكن العالم الإسلامي قد فقد هذا الروح منذ زمن بعيد، فلم يعد أحد يؤنب نفسه أو يتأثر من خطيئته، أو يبكي على ذنبه. وهؤلاء هم القادة والموجهون وقد خيم عليهم شعور بالطمائينة الأخلاقية، فلم نعد نرى زعيما يعترف على الملأ بأخطائه. وهكذا غرق المثل الأعلى الإسلامي؛ المثل الأعلى للحياة وللحركة، في فيضان من التعالي والغرور بل في ذلك القنوع الذي يتصف به الرجل المتدين، حين يعتقد أنه بتأديته الصلوات الخمس قد بلغ ذروة الكمال، دون أن يحاول تعديل سلوكه وإصلاح نفسه، فهو كامل كمال العقم، أو كمال الموت أو العدم وبذلك تختل حركة التقدم النفسي في الفرد والمجتمع، فإذا بالذين اطمائنوا لفقرهم الروحي، ولنقصهم النفسي، يصبحون قدوة في الخلق ، في مجتمع تقود الحقيقة فيه إلى العدم[26].

المطلب الثاني: المطالبة بالحقوق ونسيان الواجبات

خلق مجتمع ما بعد الموحدين كائناً على صورة (الأميبا): كائناً متبطلاً يتسكع، حتى إذا رأى فريسة هينة أبرز إليها ما يشبه (اليد) ليقنصها، ثم يهضمها في هدوء. ولقد شاءت المصادفة أن تمده بفرائس أشبعت حاجاته المتواضعة، فدرج على هذا النحو خلال قرون خلت، اتكل فيها على عناية السماء لترزقه، حتى إذا جاء الاستعمار اختطف منه ما كان يطعم، حتى لم يدع له شيئاً يتبلغ به، وكان من نتيجة ذلك أن تحرك ضميره الأميبي، أعني معدته، فمد (شبه

اليد) إلى فريسة وهمية أطلق عليها لفظة (الحق). كان ذلك هو منشأ (البوليتيكا) باعتبارها (يداً) لمجتمع ساغب، لم يعد يملك شيئاً يسد به رمقه[27]. وإذا ما حاولنا أن نترجم هذه الاعتبارات إلى حقل السياسة، وجب أن يكون ذلك طبقاً لوسائلنا، لا تبعاً لحاجاتنا، فلسنا إذن بحاجة إلى نظرية تهتم (بالحق) على حدة، أو (بالواجب) على حدة، فإن الواقع الاجتماعي لا يفصلهما، بل يقرنهما، ويربط بينهما في صورة منطقية أساسية، هي التي تسيِّر ركب التاريخ[28]. ومع ذلك فينبغي ألا يغيب عن نظرنا أن (الواجب) يجب أن يتفوق على (الحق) في كل تطور صاعد، إذ يتحتم أن يكون لدينا دائماً محصول وافر، أو بلغة الاقتصاد السياسي (فائض قيمة). هذا (الواجب الفائض) هو أمارة التقدم الخلقي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه إلى المجد. بناء على ذلك يمكننا القول: إن كل سياسة تقوم على طلب (الحقوق) ليست إلا ضرباً من الهرج والفوضى، فالسياسة التي لا تحدث الشعب عن واجباته، وتكتفي بأن تضرب له على نغمة حقوقه، ليست سياسة، وإنما هي (خرافة)، أو هي تلصص في الظلام، وليس من مهمتنا أن نعلم الشعب كلمات وأشعاراً، بل أن نعلمه مناهج وفنوناً. وفي كلمة واحدة ليس من شأننا أن نكشف له عما ألم بمعرفته من قبل، بل أن نمنحه من المناهج الفعالة ما يستطيع به أن يصوغ مواهبه ومعارفه في قالب اجتماع مُحَس. وبعبارة أدق: ليس الشعب بحاجة إلى أن نتكلم له عن حقوقه وحريته، بل أن نحدد له الوسائل التي يحصل بها عليها، وهذه الوسائل لا يمكن إلا أن تكون تعبيراً عن واجباته[29].

المطلب الثالث: طغيان العوالم الثلاث (الأشياء والأشخاص والأفكار)

الإنسانية على العموم ، تمر بثلاثة أعمار من حيث تطورها النفسي ، فهي في عمرها الأول، في طفولتها، تصوغ كل أحكامها طبقاً لمقاييس تتعلق بعالم الأشياء، بحيث تكون أحكامها في أبسط صورها، معتمدة على الحاسة أو ناتجةً عن الحاجة البدائية. ثم في عمرها الثاني تصوغ أحكامها طبقاً لمقاييس خاضعة لمبدأ القدوة، أي صادرةً من عالم الأشخاص، ففي هذا الطور، لا تكون الفكرة حرة من تجسيد، بحيث تكون قيمتها مرتبطة بالشخص الذي يجسدها في نظرنا. ثم تبلغ الإنسانية رشدها، أي عمرها الثالث، فتصبح الفكرة ذات قيمة في حدّ ذاتها، دون أيما تأييد من طرف عالم الأشياء أو عالم الأشخاص[30].

طغيان عالم الأشياء: على الصعيد النفسي والأخلاقي : عندما يتمحور عالم الثقافة حول الأشياء تحتل الأشياء القمة في سلم القيم، ومثال عن ذلك ذلك الموظف الذي يعتمد في تحديد رتبته في الترتيب الإداري بعدد الأجهزة التي يستعملها أو لا يستعملها، ففي مكتبٍ واحدٍ لموظف كبير أحصيت أربعة تلفونات أمامه، وخمسة أجهزة تكييف من حوله. وعلى الصعيد الفكري : هناك أيضاً أعراض مميزة لطغيان الأشياء. فلا يُسأل الكاتب الذي أنهى كتاباً أي بحث قد عالج وكيف

عالجه، إنه يُسأل عن عدد الصفحات، وأحياناً يقع المؤلف نفسُه فريسة الشيئية فهناك متقفٌ جزائري أخبرني يوماً أنه أنهى كتاباً يقع في كذا صفحة[31].

طغيان عالم الأشخاص: يترتب على طغيان عالم الأشخاص نتائج ضارة على الصعيدين، الأخلاقي والسياسي خاصة، فعلى الصعيد الأخلاقي: عندما يتجسد المثل الأعلى في شخصٍ ما، هناك خطرٌ مزدوج: فسائر أخطاء الشخص ينعكس ضررُها على المجتمع الذي جسّد في شخصه مثله الأعلى. وسائر انحرافات ذلك الشخص تترصد كذلك في خسائر، وتكون هذه الخسارة إما في رفض للمثال الأعلى الذي سقط، وإما في ردّةٍ حقيقية يعتقد عبرها بإمكانية التعويض عن الإحباط باعتناق مثلٍ أعلى آخر. وفي كلا الحالتين فنحن نستبدل دون أن ندري مشكلة الأشخاص بمشكلة الأفكار.وقد سبب هذا الاستبدال كثيراً من الضرر بالأفكار الإسلامية المتجسدة بأشخاصٍ ليسوا أهلاً لحلها ، فمن ذا الذي يستطيع أن يجسد الأفكار دون أن يعرض المجتمع للخطر؟. وعلى الصعيد السياسي: بالإمكان أن تحصي في بلدٍ إسلامي واحدٍ عدداً لا بأس به من الكوراث التي كان ممكناً تجنب وقوعها لو لم تُستلب أفكار دافعة من قبل أشخاص ليسوا بأهل لتجسيدها[32].

طغيان عالم الأفكار: الأفكار المكتسبة عبر الكتب قد تولّد الطغيان في مواقف تكون أحياناً هزلية؛ ففي إحدى المحاضرات عن تركيب الأدوية ، أجهد الأستاذ نفسه في وصف إحدى النباتات، وبدلاً من أن يمد يده ويقطفها من فناء الكلية ليقدمها إلى طلابه، كان يبحث عن شكلها في الكتاب أثناء محاضرته؛ بينما هي تحت نافذة قاعة التدريس[33].

الخاتمة

لقد كان مالك بن نبي دقيقًا جدًا في التمييز بين جذور الأمراض ، وأعراضها البرّاقة، فكان دائمًا ينبّه في كتبه إلى أن ما نراه من مشكلات وسلبيات في المجتمع الجزائري بشكل خاص، أو في العالم الإسلامي بشكل عام، ماهو في الحقيقة إلا نتيجة لعوائق نفسية أو فكرية أو اجتماعية، تقف وراء تلك المشكلات الظاهرية، وتغذيها بشكل خفي ، وأن الداء والمرض فينا، متغلغل في أنفسنا وأفكارنا بشكل عميق. وكانت مصطلحات مالك بن نبي نورًا يستضيء به كل متقف، وكل مصلح، بل كل مواطن بسيط لأن كل مصطلح من مصطلحاته كان بمثابة عنوان مركّز لعائق من العوائق، التي نعاني منها من حيث لا نشعر. وهنا مكمن الخطر في هذه العوائق، فغالبنا لا يتفطن لها، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن شرح مالك لهذه المصطلحات بأمثلة محسوسة أضفى عليها وضوحًا ولمسة جمالية تشد القارئ وتمتّعه، فهي أمثلة تدعو للتأمل، ثم تثير الضحك؛ لأنه في كثير من الأحيان يصوغها في قالب هزلي مضحك، وقديمًا قال أحد الحكماء:

(شر البلية ما يضحك). وأختم القول بأن هذه العوائق التي ذكرتها، ما هي إلا جزء من العوائق الذاتية، فأردت التنبيه والتمثيل فقط ، لا الاستقصاء والحصر.

الهوامش :

([1]) مالك بن نبي : شروط النهضة تر: عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط 2 : 1986م ، ص 154 .

(2) مالك بن نبي: وجهة العالم الإسلامي، تر: عبد الصبور شاهين،دار الفكر المعاصر،بيروت،دار الفكر،دمشق،ط 2. 2002، ص93

(3) سورة الرعد ، الآية : 11 .

(4) مالك بن نبي : القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر بيروت / دار الفكر دمشق ، ط 2، 1420هـ 2000م ، ص 111 .

(5) مالك بن نبي : تأملات ، بإشراف ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، الطبعة الأولى : 1979م ، ص 30 .

([6]) شروط النهضة ، ص 84 ، 85 .

([7]) العبدة محمد: قراءة في فكر مالك بن نبي ، مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، العدد:17، 1989، الرياض، ص39 .

([8]) مالك بن نبي : فكرة الإفريقية الآسيوية ، إشراف : ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر ، دمشق ، سورية ، ط 3. 2001م، ص83 .

([9]) شروط النهضة ، ص41 .

([10]) وجهة العالم الإسلامي ، ص75.

([11]) مالك بن نبي: إنتاجُ المستشرقينْ وأثَره في الفِكر الإسلاميّ الحَديث، إشراف: عمر مسقاوي، دار الإرشاد، بيروت،ط1. 1969 ص37

([12]) سورة الإسراء ، الآية : 36 .

([13]) سورة عبس ، الآية : 31 .

([14]) إنتاج المستشرقين ، ص38 ، 39 .

([15]) فكرة الإفريقية الآسيوية (ص: 21) .

([16]) مالك بن نبي:مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، إشراف:عمر مسقاوي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر المعاصر،بيروت ط 2 2002 ص 115 .

([17]) بدران بلحسن : الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري- أنموذج مالك بن نبي- سلسلة كتاب الأمة ، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية ، قطر ، العدد (73)، رجب 1420هـ، السنة التاسعة عشرة ، ص139 .

([18]) جودت سعيد : الإنسان حين يكون كلا وحين يكون عدلا ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط1 : 1414هـ - 1993م ، ص05

([19]) أخرجه أبو داود ، سليمان بن الأشعث السِّجِسْتاني : سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية، صيدا ، لبنان ، (د.ط) ، (د.ت) ، كتاب الملاحم ، باب في تداعي الأمم على الإسلام ، رقم : 4297 ، (4/ 111)

([20]) مالك بن نبي : الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر دمشق ، سورية ، ط 3 : 1408هـ - 1988م ، ص 55 .

([21]) المصدر السابق ، ص 101 ، 102 .

([22]) مالك بن نبي : في مهب المعركة ، دار الفكر المعاصر بيروت / دار الفكر دمشق ، ط 5 : 1423هـ 2002م ، ص142 .

([23]) الأفرو آسيوية ، ص84 .

([24]) المصدر السابق ، ص85 .

([25]) الصراع الفكري ، ص34 .

([26]) وجهة العالم الإسلامي ، ص86 .

([27]) المصدر السابق ، ص141 .

([28]) المصدر السابق ، ص142 .

([29]) المصدر السابق ، ص143 .

([30]) مالك بن نبي : القضايا الكبرى ، إشراف : ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر المعاصر بيروت / دار الفكر دمشق ، الطبعة الثانية : 1420هـ 2000م ، ص188 .

([31]) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، ص79 – 81 .

([32]) المصدر السابق ، ص81 ، 82 .

([33]) المصدر السابق ، ص84 .